الابن البكر في عالم الأسرة(**)

ترجمة: خليل أحمد خليل(*)

إن دراسة خصوصية الابن البكر، انطلاقاً من حياته العلائقيّة في مجرى نمو شخصيته، تعني دراسة تطور العاطفي ـ المعرفي، حصيلة تفاعل ثابت بين البيئة العائلية وبينه. فمن الزاوية التي تعنينا، ما هي في الواقع قيمة هذا التفاعل بين الابن البكر وأفراد الأسرة، نعني: الأم والأب والأخوة؟ سنتوقف بنحو خاص عند الجانب العاطفي، مع التسليم بأن العلاقات العاطفية ـ المعرفية لا تنفصم عراها، وأنها فوق ذلك مترابطة عضوياً على مدى تطوّر الطفل. لذا سنقوم بتحديد مفهوم الحياة العاطفية، ودرس مسألة التفاعل بين البكر والبيئة العائلية، موضوع الفصل الأول من هذا الباب، الذي يحضّرنا للبدء بدراستنا الاختبارية في الباب الثاني.

I ـ نحو تعريف للحياة العاطفية

العاطفيّة، عرّفها الفلاسفة والنفسانيون والمحلّلون النفسيون:

1 ـ المعنى الفلسفي

نأخذ عن سارتر هذا التعريف: «تشكّل الحياة العاطفية وجود الحقيقة البشرية، أي إنها مكوّنة لحقيقتنا البشرية لكي تكون حقيقة إنسانية ـ عاطفية»[1].

تبدو الحياة العاطفية أنها تبلغ جوهر الوجود، فهي حقيقته، حقيقة حساسية الوجود، في مقابل الفكر.

2 ـ المعنى النفساني

إن الحياة العاطفية هي إحدى الظواهر الإنسانية، التي دُرِست على عدة مستويات بهدف فهم

(*) أستاذ في الجامعة اللبنانية.

(**) هذا فصل من أطروحة بالفرنسية، عنوانها **الابن البكر شخصيّة مميزة**، **Le fils aîné, figure à part**، ناقشتها الأخت روز الأشقر في جامعة القديس يوسف ـ بيروت ـ سنة 1989، بإشراف الأستاذ منير شمعون، وترجمها خليل أحمد خليل. ستصدر قريباً سنة 1997 عن دار الفكر اللبناني، بيروت.

(1) J.-P. SARTRE: Cité par Amado, **L'affectivité de l'enfant,** Coll. SUP, P.U.F., 1969, p. 7.

الكائن البشري، من خلال سلوكه أو ردود فعله التكيفية المتعلّقة بالبيئة.

لقد عرّف عدد كبير من النفسانيين عاطفية الفرد بأنها من مكوّنات الشخصية، لكن كلاً منهم شرحها بطريقة مرتبطة بنظريّته. وليس علينا أن ندرس النظريات المختلفة، ولا أن نقارن ببعضها؛ فقد آثرنا أن نستقرض من معاجم المصطلحات، المآلفة (Synthèse) التي تجريها على مجمل النظريات المتعلقة بالعاطفية: إن العاطفية «قدرة فردية على معاناة المشاعر والانفعالات»[2]؛ أو أيضاً، هي «استجابة عاطفية عامة لها تأثيرات محدّدة في الجسد والروح»[3]. وثمّة تعريف آخر لها: «إنها ملكة التمتّع أو التألّم»[4]، وهناك تعريف أعم، يشمل البيئة: «جملة استجابات الفرد النفسية أمام الأوضاع التي تتسبّب بها الحياة»[5]. ونجد في موضع آخر الفكرة التي تشاء أن يكون الانفعال (Passion) أحد أشكال الحقيقة البشرية، الأقوى، فهو «استقطاب مكتسب للعاطفية محوره شعور محدد يجتاح كل الحياة النفسية، ويستتبع كل فاعلية الشخص»[6]؛ وعليه، نخلص إلى أن العاطفية لا تنفصم عراها عن الحياة الغريزية وعن الفاعلية.

إن مجمل التعريفات، التي تقدّمها مختلف المعاجم، تتعلّق بالطابع المولّد للّذة. وهذا الأخير يمنح الشخصية طابعاً ديناميكياً، ويحدث مواجهة بين الحياة العاطفية والواقع.

3 ـ المعنى التحليلي النفسي

يتكلم فرويد مباشرة على العاطفة؛ وينطوي هذا المفهوم على كل حالة عاطفية قاسية أو لطيفة، تعبّر عنها «كل مجموعة عناصر تمثيلية مترابطة ومشحونة بالعواطف»[7]. إن هذه العواطف «المحشورة»[8] ذات مآلين: أولهما مرتبط بالمسارات اللاسويّة، أعراض الهستيريا والإقلاب، وثانيهما متعلق بالحياة السويّة، حيث «تنتج كميّة معينة من الطاقة العاطفية... ظاهرة التعبير عن الانفعالات»[9]. هذه العواطف «ترمي بثقلها على كل الحياة النفسية»[10] التي يكون جانبها المُعاش إرصاناً لاحقاً [يتعين عليه] التحقّق تحت تأثير شتّى القوى النفسية المتدخلة لاحقاً[11].

يرى فرويد أن العواطف هي الجوانب الأولانية جداً من الحياة العاطفية، التي تميّز معنى أية استجابة، وأن أحد أشكال الاستجابة هو الانفعال، وهذا استقطاب «مكتسب من الحياة العاطفية، محوره شعور محدّد يجتاح كل الحياة النفسية ويستتبع كل فاعلية الشخص». إن موضع

---

(2) H. PIERON: **Vocabulaire de la psychologie,** P.U.F., 1951, p. 6.

(3) م. ن.، ص 86.

(4) A. LALANDE: **Voc. Tech. et crit. de la philosophie,** op. cit., P.U.F., 1968, p. 981.

(5) A. POROT: **Manuel alphabétique de psychiatrie clinique et thérapeutique,** P.U.F., 1975, p. 20.

(6) م. ن.، ص 21.

(7) S. FREUD: **Cinq leçons sur la psychanalyse,** Pbp, 1968, p. 34.

(8) م. ن.، ص 18.

(9) م. ن.

(10) م. ن.

(11) S. FREUD: **Psychanalyse, Textes choisis,** P.U.F., 1963, p. 67.
فلنلاحظ أن نظرية «الكبت» قاعدتها: الممانعة، الانتقال وفقدان الذاكرة، وأنها تختصر وحدها الجانب العاطفي في مختلف أشكاله: نزوة، تثبيت، أحلام، أفعال خائبة...

تشكّل العاطفية هو اللاوعي حيث يجد بواكيره الأولى.

نرى أن العاطفية هي بمنزلة التعبير النوعي عن الكمية النزوية وتقلّباتها؛ وأن حياة الفرد قد تكون «استنساخات لأحداث قديمة ذات أهمية حيوية»[12]. وفيها تتجلّى ثلاث سمات للحياة العاطفية: السمة الديناميكية، الكمية المترجمة بالطاقة النزوية، والذاتية.

4 ـ محاولة تعريف

من الممكن أيضاً تعريف الحياة العاطفية من طريق الشخصية، بوصفها جزءاً منها لا يتجزّأ؛ وسنختار التعريف التالي، المعترف به حالياً: الشخصية هي «بناء بنيوي ناجم عن التفاعل بين الاستعدادات الفطرية والظروف الخارجية»[13]؛ كما أنها تمثّل، على حد تعبير آلبور (Allport)، «جوهرياً، مفهوم الوحدة الدمجيّة للإنسان، بكل مزاياه التباينية الدائمة، وكيفيات سلوكه الخاصة به»[14]. هذا، وتعدّ العاطفية بمنزلة وسيلة اتصال مع الآخر، وفهم لوجوده؛ إنها رابطة يصنعها تاريخ الفرد والبيئة الحيوية. وإن الطابع الديناميكي لهذه العلاقة سيساعدنا على درس مزايا شخصية الابن البكر، بمقتضى محيطه الذي يحمل إرث الماضي؛ وكما يقول دياتكين: «مهما تكن الإرهاصة التي نباشر بها الرّصد، فإننا نكون دوماً أمام ماضٍ طويل، ينيطه المشهد المنظور بمعناه»[15].

II ـ التطوّر العاطفي للابن البكر في بيئته الحيوية

بما أن الشخصية بناء بنيوي، ناجم عن التفاعل الاجتماعي ـ العاطفي، فسوف ندرس تطوّر شخصية الابن البكر من حيث مرتبته في الولادة، نظراً لأن النشاط المتجلي الأول يقوم على التفاعل العاطفي بين الطفل ومحيطه الحيوي، المُعاش بوعي أو بلا وعي.

1 ـ التطور العاطفي ـ المعرفي للفرد

إن حبّ الذات ضرورة حيوية؛ فكل كائن بشري يعيش حباً نرجسياً، ويحبُّ أن تكون له قيمة. وليست علاقة الطفل ـ البيئة علاقة خارجية، بل هي علاقة ارتباط وتبادل خصوصاً في صميم الحياة العائلية: «تتكوّن الذات بتبني مواقف الآخر»[16]، كما جورج آمادو، وأن بناء العالم الحيوي يواكب بناء عالم الأنا؟ وبادىء ذي بدء، تقوم بين الصغير والأشخاص الذين يحيطون به علاقة معينة، بحيث «يكون الأنا شخصاً متكوناً مع هذا العالم»[17]. إنها علاقة مع أشخاص أحياء، معين لا ينضب من التجارب والأفعال الجديدة حيث تلعب الديناميكية العاطفية دوراً من الطراز الأول في تطوّر شخصية الطفل في سنواته الأولى. ذاك «أن الطفل.. في كل لحظة من حياته يكون كائناً مليئاً، طفلاً، وليس طفولياً»[18]. إن أقلّ حركة للصغير تفصح عن حاجة إلى التحرّك

(12) J. LAPLANCHE et B. PONTALIS: **Vocabulaire de la psychanalyse**, 1968, p. 13.
(13) G. AMADO: **L'affectivité de l'enfant**, S.U.P., P.U.F., 1969, p. 11.
(14) H. PIERON: **Voc. de la psychologie**, op. cit., p. 323.
(15) R. DIATKINE: **De l'observation de l'enfant à la thérapeutique**, E.S.F., 1977, p. 176.
(16) G. AMADO: **L'affectivité de l'enfant**, op. cit., pp. 313-314.
(17) Paul CHAUCHARD: **La maîtrise de soi**, Dessart, Bruxelles, 1969, p. 142.
(18) P. CHAUCHARD: **La maîtrise de soi**, op. cit., p. 142.

وملء المكان أو الاحتكاك بالعالم. هذا النشاط لا واعٍ، لكنه يسمح له بأن يكتسب وحدته تدريجياً، وفيما بعد فرديّته التي تتحقّق من خلال العلاّقة. والمؤثرات العاطفية، الممارسة على الطفل منذ المهد «لا يمكنها إلا أن تكون ذات فعلٍ حاسم في تطوره العقلي»[19]. ويؤكد جيزيل وإيلغ أن «الطفل ينمو ككل، وأن ما نسمّيه شخصيته ليس سوى شبكة منظّمة، ومنظّمة جداً، من البنى السلوكية، ولا سيما السلوك الشخصي والاجتماعي»[20]، ويمكننا الكلام على هذه أو تلك من الوظائف معتبرين أن الانعكاس سيؤثّر في مجمل وظائف النفسيّة البشرية. وبهذا المعنى كتب بولبي: «إن نموّ الأنا وما فوق الأنا (الأنا الأعلى) مترابطان بلا انفكاك بالروابط العاطفية الأولى للطفل»[21]. وفي المقام الأول، إذا أخذنا في الاعتبار عاطفية الطفل والمناخ العاطفي، لا يمكننا فك العلاقة بالآخر؛ إذ إن العلاقة بين البشر هي علاقة عاطفية أولاً.

أخيراً، إن العلاقة بين الطفل والبيئة، وإن كانت عامة، تتوقف على درجة الأهمية المناطة بالطفل في سلّم القيم التي تأخذها البيئة في اعتبارها.

2 ـ علاقة التبعية بين البيئة والطفل

أ) عموميّات

يستطيع الطفل، على مدى مرحلة تبعيّته، أن يتلقّى من بيئته، وفي المقام الأول من أهله، تجاربهم وقناعاتهم؛ وبدلاً من المعاناة السلبية لتاثيرات البيئة، يمارس أيضاً تاثيراً في أهله وفقاً لحاجاته ونزعاته الخاصة به. إن هذا الاتصال بالأهل يسهم في النّماء العاطفي لوجوده الحميم، وينبني مستبطناً الهوامات الوالديّة المقدّمة له؛ فيما ينبني العطف الأول انطلاقاً من الانطباعات الحسّية التي ترافق إشباع الحاجات الأساسية، انطلاقاً من انطباعات مرئية، سمعية وسواها. «إن ترابط الانطباعات الحسية مع الانطباعات الحركية الحسنة أو السيّئة، يغدو وسائل توجيه ورقابة في البحث عن إشباع الحاجات»[22]. والحال، ستتكوّن الشخصية بفضل هذه المسارات التعليمية المتنامية والمعقّدة أكثر فاكثر، وكما تقول م. كلاين: «إن الاجتياف والإسقاط، وإن كانا متجذّرين في السنوات الأولى، ليسا مسارات طفولية وحسب...»[23]، وتضيف أن هذه المسارات «هي جزء من هوامات الرضيع التي تتشكّل منذ البداية أيضاً، وتساعده على قولبة الانطباع الذي يكوّنه عما يحيط به؛ وباجتيافٍ، هذه الصورة، المتحوّلة عن العالم الخارجي، تؤثّر في حياته النفسية»[24].

ب) وضع الابن البكر

تضطلع الحياة العاطفية، إذن، بدور كبير في نمو شخصية الطفل؛ والحقيقة أن الابن البكر هو طفل كأي طفل آخر، ولكن من الصحيح أيضاً أنه تُعزى إليه أدوار ومواقع خاصة جداً، كما سنرى لاحقاً.

---

(19) H. WALLON: **L'évolution psychologique de l'enfant**, Armand Colin, Paris 1968, p. 143.

(20) A. GESELL et F. ILG: **Le jeune enfant dans les civilisations modernes**, P.U.F., 1980, p. 27.

(21) J. BOWLBY: **Soins maternels et santé mentale**, Genève 1954, p. 61.

(22) H. BOLL et F. BAUD: **La personnalité**, op. cit., p. 15.

(23) Mélanie KLEIN: **Notre monde adulte et ses racines dans l'enfance**, article paru dans **Psychologie sociale**, par A. LEVY, T.I., éd. Bordas, 1978, p. 49.

(24) م. ن.، ص 49.

3 ـ الابن البكر والوالدان

على النحو التالي، تُلخص الارتقابات الوالديّة بالنسبة إلى الابن البكر:

أ) على الصعيد الديني

ـ الإبن البكر هو:

- حق مكتسب لله.
- المكرَّس.
- شخص مقدّس.
- جدّ المسيح.
- المبارك من الله.
- بركة الله على الأهل.
- المفتدى من الأهل.

ـ يفرض الله الإخلاص على الابن البكر.

ب) على الصعيد الاجتماعي ـ الاقتصادي

للإبن البكر الحقّ في:

ـ الخلافة.

ـ إرث الأملاك.

- بكليته.
- أو النصيب الأفضل.

ـ استمرارية الاسم.

ـ محل اسم جدّه لأبيه.

ـ حمل شهرة ذويه.

ـ كونه الرئيس.

ـ السلطة شبه الوالدية.

ـ مسؤولية الأخوات غير المتزوجات.

ـ له المكانة الأولى على الطاولة.

ج) على الصعيد الشخصي

ـ الابن البكر هو:

- التجلي الأول لرجولة الأب القوية.
- حافظ وحدة الأملاك.
- الآخذ بالثأر.

● مصدر الاعتزاز.

● مصدر القلق.

ـ للإبن البكر:

● الشخصية الحقوقية المميّزة من شخصية الأب.

● طاعة الأخوة

● المنزلة الرفيعة.

ولكن، إذا انحلّ بعض هذه الامتيازات، هل يواصل الابن البكر التمتّع ببعضها الآخر؟ وهذه الأخيرة أليست هوامات تراود هذا الابن دوماً؟

بما أن العقلية التي يستيقظ بها الابن البكر على الحياة، ويعيها، قد جرى ترسيمها على هذا النحو، فسنسعى لاكتناه تأثيرها في بناء شخصية هذا الابن في ظل التحفيز العاطفي العائلي.

الواقع أن علاقة الأهل العاطفية بالابن البكر هي علاقة مفعمة بالدلالات المرتبطة بها. وبما أن هذه العلاقة بين الأهل والابن البكر مفعمة بمعانٍ كامنة، سننظر إليها نظرة خاصة، لما تحمل من دلالات في نظر الأهل. وإذا اعتبرنا أن «العائلة اللبنانية، القمعية أو المفرطة في حمايتها تعاقبياً أو تساوقياً، فإنها تسهم بنحو خاص في بناء شخصيتنا المنوالية، فهي في آن علّة ومعلول، طالما أنها تستمدّ بنيتها الخاصة من الشروط التاريخية، وتعكسها في مستوى الشخصية الفردية للطفل»[25]. انطلاقاً من هذه الملاحظة ماذا يمكن أن يكون وضع الابن البكر في هذه المتاهة؟

4 ـ دلالة الابن البكر عند الأم

تنشأ في العائلة ظواهر العلاقة، بادىء الأمر في زمرة الأب ـ الأم ـ الطفل، هذا الثلاثي هو الأصغر من بين الجماعات الفرعية، بعد ثنائي الأم ـ الولد بالنسبة إلى الطفل الصغير جداً، قبل بلوغه العامين، والأم تختصر وحدها كل مسألة العلاقات العائلية: «إن تكوّن الشخصية الطفليّة، كبنية نفسية محددة، هو عادة نتاج شخصية الأم وعلاقتها بالطفل»[26].

تتدخّل الأم بقوة في تكوين الطفل الصغير، فهما يعيشان معاً عيشةً حميمة جداً، والشعور بالطمأنينة الصادر عن الأم يجعل الصغير كائناً فاعلاً، ويوجّه نضجه بقدر ما ينقاد الصغير لأمه. هذه الرابطة تتميز بعفوية لا يمكن توقعها، وطاقة لا تنضب، ورغبة جامحة في الحياة والتحقّق، لأن «هذه المبادلات ـ كما يقول سبيتز ـ بين الأم والطفل تتواصل على نحوٍ غير منقطع، دون أن تعيه الأم؛ وهذا النوع من التواصل يؤثر تأثيراً ثابتاً يقولب النفسية الطفلية»[27]. في نظر الأم، هذه الحقيقة ترتدي وجهين، أحدهما داخلي، وثانيهما خارجي، ولكليهما تأثير في الطفل.

---

(25) Mounir CHAMOUN: **Travaux et Jours,** No. 30, janvier-mars 1969, p. 79.
(26) Hélène DEUTSCH: **Problèmes de l'adolescence,** P.B.P. 1970, p. 79.
(27) R. SPITZ: **De la naissance à la parole,** P.U.F., Paris 1968, p. 105.

أ) الابن البكر علامة اعتزاز للأم

في السابق كان يتحدّد موقع العائلة بوجود الطفل، والحال فإننا ندرك أن حَدَث الحمْل هو حدث خارق في نظر الفتاة المتزوجة. فإلى جانب التغيّر في حياة المرأة العاطفية، ينطوي موقعها الاجتماعي على قيمة جديدة بعد الزواج. وإذا تبدّد الخوف من العقم، وإذا صارت ظاهرة الصيرورة أماً هي الأولى، فلن يبقى عليها سوى العيش في انتظار أول مولود! إن هذا الانتظار الطويل المشوب بالفرح وبالقلق، يثير لدى الأم جملة رغائب مكبوتة، ملتبسة مع مستلزمات الأمومة، كما يشير فرويد إلى ذلك: «تواصل الرغبة المكبوتة وجودها في اللاوعي»[28]. وتنزع الهوامات، المتكونة على هذا النحو، إلى التجسد من خلال النظام العلائقي بين الطفل والأم التي تجد في طفلها بديلاً، ما دامت الرغبة المكبوتة «تترصد فرصة لظهورها... من وراء قناع»[29]. إن التفاعل بين الطفل والأم سيتسم بنماذج أولية بدائية، يثير فرضها آليات مماهاة: إسقاط واجتياف. إن الأشكال المثالية المتكوّنة، التي ترفع من قيمة المُعاش الفردي، إنما تُنقل إلى الابن البكر بوجهٍ خاص، لأنه موضع «اعتزاز» في نظر الأم؛ فهو الذي يحقّق أمانيها.

ب) الابن البكر دلالة قوة في نظر الأم

بما أن مجيء الطفل الأول هو في نظر الأم مصدر غبطة وتبدّل، فإنها تعيش في طمأنينة معيّنة، منذ أن تنجب ابناً، وعندها يتوطّد اعتزازها تجاه زوجها وحمويها.

ففي مرحلة أولى تنصرف الأم برضىً وانتصار، على أمل أن تحقّق من خلال ابنها كل ما من شأنه أن يجعلها في وضع مشرّف: أن تصبح أم طبيب، قاضٍ، مثلاً، أم رجل قوي.

ج) تماهي «الأصغر» بالابن الأكبر

بلا وعي، تنزع الأم إلى استرجاع المواصفات، من خلال ابنها، التي عجزت عن امتلاكها كبنت، والتي يملكها هذا أو ذاك من أخوتها، وهي مواصفات كانت تشكّل اعتزاز أمها هي. وبهذه الولادة، تسترجع الكبرياء والفرح اللذين يحلاّن محل «إمتهانها» لكونها «بنتاً»، وهذه نظرة واضحة جداً في خلال طفولتها، مع كل الحرمانات الناجمة عن كونها بنتاً، فيما الصبيان يتمتّعون بها. عندها تُسقِط الأمُّ على ابنها الأول، الترسيمات اللاوعية التي تجعلها تتعذّب والتي كانت تواصل إعلاء حياتها الفردية. منذ ذلك الحين، الابن البكر الذي يغدو بديلاً من «الصورة الأبوية»[30]، أو الصورة الذكَرية، يجد نفسه مرغماً على تحقيق مضمون هذا التماهي.

د) استحسان دور جديد للابن البكر

الواقع أن الابن البكر إذ يغدو، في نظر الأم موضوعاً لتحقيق رغباتها المكبوتة، وتحيين إسقاطاتها القديمة، إنما يغدو جواباً عن اللغز الذي كانت تطرحه على نفسها، حينما كانت طفلة، وعن اختلاف تشريحها الجنسي الذي كان يترجم نفسه بالقلق لأنها لم تكن صبياً. فتغدو مصدر غبطة للأهل، بدلاً من أن تكون موضوع خيبة.

---

(28) S. FREUD: **Cinq leçons sur la psychanalyse,** op. cit., 1968, p. 29.

(29) م. ن.، ص 29.

(30) S. FREUD: **Psychanalyse, Textes choisis,** op. cit., p. 162.

- الابن البكر موضوع تعويض على الأم

إن جملة العنايات الأمومية المتكررة والمنصبة على الابن البكر، هي بوضوح «ظواهر الانتقال المعبّرة عن الممانعة التي يبديها الأنا حتى لا يكشف العناصر المكبوتة»[31]. وعند الأم، يمكن أن يغدو الابن البكر موضوع معارضة عن حرمانها من القضيب؛ فتعيش الأم حياة مشاركة مع الطفل الذي هو جزء منها، وتُسقط عليه كل الرغبات التي حُرمت منها؛ والابن البكر «في علاقته مع الأكبر منه... يعاني تحوّلاً بحسب نموذج الشخص الذي كان موضوعاً شبقياً، ليبيدياً، له»[32]، والذي يكون في هذه الحالة، الأم؛ الأمر الذي يسمح، من جهة، للأم بأن تتحرر من جرحها النرجسي، ومن جهة ثانية، يسمح للبكر بأن «يبحث عن أغراض، موضوعات يمكنها الحلول محل أناه الشخصي»[33]، هذه الموضوعات لا يمكنها أن تكون سوى أمنيات الأم.

هناك دور جديد يُناط بالبكر، هو دور تحقيق الإسقاطات الأمومية التي تنتمي إلى تكوين مثال الأنا لدى الطفل. ومثال الأنا هذا، المتكوّن على هذا النحو، هو «وريث النرجسية التي كان الأنا الطفلي يكتفي فيها بنفسه»[34]. ففي خلال تطور شخصيّته يواصل الطفل «الاستقراض من مؤثرات البيئة كل المستلزمات التي تفرضها عليه، والتي لا يكون الأنا دائماً قادراً على تلبيتها»[35]. الأمر الذي يفسّر موقف الابن البكر تجاه الأم، والصورة التي يكوّنها عنها...

- الابن البكر موضوع حفظ للأم

أمام كل أذىً يمسّ بالطفل، تعيش الأم قلقَ الفراق، في مواجهة حقيقة الحياة، حيث يمثل لها تهديد جديد: «الخوف من فقدان هذا الموضوع النرجسي الثمين»[36]؛ والحال، يعكّر توتّر جديد مشاعرَ الأم وعملها، فلا بد أن يعيش الولد حتى تتمكن من تحقيق كل الارتقابات الوالدية، والأمومية بنحو خاص، الأمر الذي يظهر للعيان شعوراً ثنائياً، وتكثيفاً للمشاعر وتقلبات في مواقف الأم، إذ إن عاطفتها تُملي عليها سلوكاً معيّناً سرعان ما يُحسم، ويمكنه أن يكون خطيراً على الطفل. وعليه، تتصرّف الأم في ظل عدة عوامل:

- الخوف من فقدان الموضوع النرجسي،
- الخوف من فقدان امتيازها،
- الخوف من فقدان حبّ زوجها لها،
- الخوف من الفشل في حال عدم تحقيق هذا الطفل لإسقاطاتها.

هذه المشاعر الاجتماعية [للأمّ] تقوم على تماهياتٍ مع أفراد المجتمع الآخرين الذين يشاطرونها الأنا المثالي ذاته[37]؛ وحيث إن الابن البكر هو «العضو» الأمثل الذي يمكنه إشباع الأنا الأمومي المثالي، فإنه يعاني هذه المخاوف بتوتّر شديد يؤثّر في أناه. الأمر الذي يشكّل علاقة بنيوية حيث «يتعيّن على [الأنا المثالي للبِكْر] أن يتصرّف لكي يلبّي ارتقاب

(31) S. FREUD: Essais de Psychanalyse, op. cit., P.B.P., 1971, p. 28.
(32) م. ن.، ص 131.
(33) م. ن.، ص 130.
(34) م. ن.، ص 132.
(35) م. ن.
(36) S. FREUD: Psychanalyse, op. cit., p. 134.
(37) S. FREUD: Essais de psychanalyse, op. cit., p. 207.

السلطة»[38] الذي تتطلبه الأم.

فضلاً عن الخوف من فقدان ولدها، هناك حركات ومحفّزات مختلفة تشجّع الحياة العاطفية لدى الطفل. «بما أن الشعور الأمومي هو حصيلة قوىً شتى ولحظات حماس، ...، وحكم الآخر»[39]، فإنه يحفّز تحقيق رغبة سابقة؛ وتكون فعاليته متناسبة مع الأهمية المناطة بموضوع الحب هذا. والطفل «يحسّ، ربما بغموض، ولكن بيقين، بالواقع العاطفي الذي يتخفّى وراء الظواهر»[40]؛ ويكون ناشطاً تماهيه بالأنا المثالي، الذي تعكسه الأم. في الآن ذاته، يُظهر الصبي الصغير اهتماماً كبيراً بالأب: «يودّ أن يغدو وأن يكون، مثل الأب، وأن يقوم مقامه على كل الصُعُد: فيتّخذ من أبيه مثاله»[41]. لكن ولادة ابن ثانٍ تعزّز «الحرمانات المحتومة، الملازمة للعلاقة (بالأمّ التي ستولّد) عدوانية مضادة للأم»[42]، وفي المقابل، ينقلب الطفل نحو الأب، إذ إن «تماهيه المبكّر مع الأب يقوم بتخليص الطفل من هذا القلق الأصلي، ...، والاهتزاز الشبقي الناجم عن اللعبة المزدوجة للصور الأمومية»[43]؛ يبدأ هذا التماهي باهتمام كبير وجلي تجاه الأب والصورة المثالية الأبوية، التي تقدّمها البيئة العائلية للطفل.

5 ـ دلالة الابن الأوّل بالنسبة إلى الأب

في هذه العلاقة الثلاثية، الأب ـ الأم ـ الطفل، يكتسب الصغير هويته تدريجاً، خصوصاً أن «الطفل هو في المقام الأول وعي ينبغي تشكيله»[44].

إن علاقات الرضيع الأولى تابعة، إلى حد كبير، لكل العوامل الأخرى داخل العائلة، وبالدرجة الأولى، العلاقة بالأب، الذي يرى أن الابن البكر مفعم بالدلالات. وبوجه خاص، يقع على كاهل الأم تحقيق صلة الوصل بين حضور الأب ووجود الطفل خصوصاً في خلال الأشهر الأولى من حياة الصغير. غير أن الصورة المثالية التي تقدمها الأم للطفل، هي صورة مشحونة، جوهرياً، بمُثُلٍ متعلّقة بجنس الذكر. إن حضور الأب في البيت لا يلبث أن يظهر في ذهن الطفل. فبقدر ما يكبر الطفل، يتلبّس دور الأب بكل دقائقه. وسرعان ما يتخذ مناخ الصغير العاطفي، وبشكل طبيعي، منحىً آخر: هو منحى «الهيمنة على (الأب) لصالح التماهي»[45]. وبقدر ما يتطور، يجد البكر نفسه مندرجاً، بنحو خاص، في جو خاصٍ به؛ إذ إن العاطفية جزء لا يتجزّأ من الشخصية، وهي تقود الطفل إلى الإدراك الأولي لما يمثّل هو نفسه بالنسبة إلى الأب، كما جرى تبيان ذلك، ويبدأ حدوث الاجتياف.

إن موضوعاً «يمكنه أن يغدو طيّباً... بعد اجتيافي سابق... وعندما يجتاف الأنا... شيئاً ما من هذا الموضوع، يستردّ ما كان من نصيبه»[46]. وعليه، يضطلع إسقاط الأماني الوالدية على الابن

---

(38) D. LAGACHE: Cité par **le vocabulaire de pa psychanalyse** de Pontalis, op. cit., p. 186.
(39) B. MARBEAU-CLEARENS: **Psychologie des mères,** éd. Universitaires, 1966, pp. 178-179.
(40) POROT: **L'enfant et les relations familiales,** S.U.P., P.U.F., 1973, p. 16.
(41) S. FREUD: **Essais de psychanalyse,** op. cit., p. 126.
(42) M. CHAMOUN: **Travaux et Jours,** No. 44, juillet-septembre, 1972, p. 108.
(43) م. ن.، ص 109.
(44) P. CHAUCHARD: **La maîtrise de soi,** op. cit., p. 142.
(45) S. FREUD: **Psychanalyse,** op. cit., p. 49.
(46) M. KLEIN: **Développement de la psychanalyse,** P.U.F., 1966, pp. 118-119.

البكر، بدور فعّال مؤثر في هذا الأخير: «يدرك الصغير ظواهر... ناجمة عن حوادث خارجية»[47]، لأن الاجتياف والإسقاط يدخلان في تفاعلٍ بكيفيات شتى»[48].

في نطاق التماهي بالأب، تدخل الصورة المرمّزة، المبنيّة والبانية، في التكوين العلائقي للبكر. فمنذ بداية تطور الصغير، نشعر أن دور الأب غير موجود؛ ويوم يغدو الصغير قادراً على تحديد موقعه بالنسبة إلى الأغراض المحيطة به، فإنه يعي ذاته بمواجهة الآخرين، ويدرك ما يكنُّه له الأب من عاطفة. أكيد هو تأثير الصورة المثاليّة التي يُسقطها الأب على حياة هذا الابن العلائقية، خصوصاً أن «طبيعة العلاقات الغَرَضيّة وتكوّن الطابع يتوقفان كثيراً على هيمنة التثبيتات المسبقة»[49]، وعلى التواصل بين الطفل والأهل الذين «يمارسون ضغطاً ثابتاً يُقولِبُ الطفلَ نفسيّاً»[50] ويوجّه كل مجريات حياة الفرد المقبلة. إن جملة الارتقابات الواردة آنفاً، تسمح لنا باستخلاص الهوامات، المُسقطة على الابن، التي توجه تطوره العاطفي.

أ) الابن البكر علامة رجولة

إن ولادة الإبن الأول تكون، في نظر الأب، مشحونة بعدّة دلالات، نذكر منها دلالة الرجولة. فمن الزاوية الاجتماعية للأب ابنٌ، ولم يعد في الإمكان اتهامه بالعجز عن إنجاب ولد، وأنه ليس «كاملاً» (كما يقال). فهو مرتاح، وكأن الإرادة لها دور في هذا الشأن، متجاهلاً لعبة المصادفات. كذلك من الشائع في المعتقد الشرقي أن «الابن البكر هو التجلي الأول وكأنه باكورة قوة الأب الرجولية»[51]. بما أن الابن البكر مفعم بهذه القيمة، فإن التواصل بين الأب والابن لا يمكنه إلا أن يكون ناشطاً، ويكون كبيراً انعكاسه على النمط العلائقي للطفل، خصوصاً أن «الأب يحب بِكْرَه بحنانٍ شديد»[52].

ب) الابن البكر مصدر اعتزاز

لدى ولادة الابن الأول، يحل فرح الأب الشديد محل الخوف من عدم القدرة على أن يكون أباً لابن. هذا الشعور يُترجم اعتزازاً يتواصل التعبير عنه بوسائل شتّى: تسمية الأب باسم ابنه، كبادئة لاسم الأب، «أبو هاني» مثلاً، والتربية الخاصة للبكر، واختيار مستقبله أو سلوك الأب تجاه هذا الابن، سلوكاً مفعماً بالرجاء.

إن الدلالات المستفادة من موقف الأب، تمرُّ عبر العناصر الذاتيةُ المتبادلة التي تترك آثارها العاطفية منطبعة في نفسية الطفل البكر: «إن المثيرات التي تؤثر في **الهو** وتطلق مسيرة الإدراك وتشكّل الأنا، تأتي... من أشخاص محيط الصغير»[53]. إن صورة الأب، التي تشكّل جزءاً من الصورة المثاليّة التي يتلبسها البكر، تضطلع بدور أولي في تكوين نفسية الطفل المتنامية؛ وإن تفاعل البكر مع صورة الأب، يتطابق مع العلاقة الغرضية المميّزة بتبعية خاصة؛ هذه الصورة أساسية، إذ عليها «تقوم كل العلاقات بين الذات والموضوع»[54]، كما تقول **ميلاني كلاين**،

(47) م. ن.، ص 119.
(48) م. ن.
(49) M. KLEIN: **La psychanalyse des enfants**, op. cit., 1968, p. 165.
(50) R. SPITZ: **De la naissance à la parole**, op. cit., 1968, p. 105.
(51) **La Bible**: op. cit., **Deutéronome XXI**, 17.
(52) م. ن.، ص 320.
(53) M. KLEINE: **Développement de la psychanalyse**, op. cit., p. 119.
(54) م. ن.، ص 122.

وكما نلاحظ من خلال الرد على استمارتنا الموضوعة لهذه الغاية.

ج) الابن البكر علامة ديمومة

إن هاجس الديمومة أو العامل الاقتصادي، يتجلّ في ظاهرة اعتبار الابن البكر في منزلة ذلك الذي يكفل استمرار العائلة، والذي «يحمل اسمها»[55]. في نظر الأب، يغدو الابن البكر معنىً للديمومة؛ وفيه، يرى الأب شخصاً آخر سواه. الواقع أن من الطبع البشري الصراع ضد الموت، كما تفسِّره غريزة البقاء أو إروس (Eros)[56]، التي تقوم على «تعقيد الحياة، ...، والحفاظ عليها وصونها»[57]. ترتدي ولادة الطفل دلالة التغلب على الموت بوجود حياة أخرى، غير حياة الأب، وعليه، يكون الابن البكر بمثابة قيمةٍ حيوية، في نظر الأب، وانتصارٍ على الموت. مما يفسّر الفرح الكبير الذي يفصح عنه الأب لدى ولادة هذا الابن؛ الأمر الذي يُجيز لنا الحكم على إسقاط الأب في الطفل، وتفسيره هو انعكاس «أنا» الأب في «أنا» الابن: «الأنا الذي يشكّل خزاناً بدائياً...، وانطلاقاً من الأنا، يتمدّد الشّبَق في اتجاه الموضوع»[58]. إن سلوك الابن، تحت تأثير تصوّر الأب والقيم[59] المنسوبة إلى الابن، هو «حصيلة» «تنازع» بين الأنا وشحنات الموضوعات الشبقية»[60]، أو هو أيضاً حصيلة التفاعل والتبادل الذاتي بين الأب والبكر في مجرى تطور شخصية الثاني. إن البكر، بوصفه موضوعاً نرجسياً في نظر الأب، ينزع إلى تحقيق الأماني الأبوية، ويتصرّف تحت تأثير الأب الذي تكون تجاربه هي الأمثل بالنسبة إلى ابنه.

إن الديمومة من خلال الابن البكر تتحقّق آنئذٍ، وعندها تكون انطباعات الطفولة الأولى بمنزلة قاطرة عاطفية يمتدّ فعلها على مدى الحياة...

6 ـ العلاقة الأخوية

إن القسم الثاني المكوّن للأسرة هو الطفل الآخر، أو مجموعة أطفال: الأخوة والأخوات. إنه مجموعة الأخوة والأخوات، على اختلاف أنماط بنائهم المتطور حسب العدد وفارق العمر والجنس. ويمكننا تعريفها بأنها موقع لقاءٍ حيوي حيث تُصاغ، جماعيّاً، استجابات صادقة ومهمّة بنحوٍ خاص؛ فهذه الاستجابات (ردود الفعل) تتحقق في سيرورة اجتماعية هي العلاقة. وترجع العلاقة إلى الارتباط الأول للصغير بالراشد؛ وهي تبدأ بالتشكّل عبر العلاقة بين الأهل، وفي المقام الأول العلاقة بالأم بوصفها «المنظّمة» الأولى للأواصر، والموضوع الأول للحب. فالصغير الذي كان يعيش متفاعلاً حيوياً مع أمه، يتوصّل بعد بضعة أشهر إلى التطابق مع وجود الراشدين، وإلى امتلاك شخصيته الصغيرة من خلال فرديّتها؛ وفجأة يجد نفسه في مجابهة مع مولود جديد؛ وفي البداية، من المحتّم أن تنطوي العلاقة الأخوية على نقيضتها، العدوانية، ولكنها بعد ذلك، «تتجذّر وتتفتّح في العلاقات بين الأشخاص»[61]. حتى مجيء مولود

---

(55) أقوال شائعة في الأوساط اللبنانية.

(56) حسبما ذهب إليه فرويد في استعمال هذا المصطلح في نظريته الأخيرة عن النزوات: هو مجموعة نزوات الحياة في مقابل الموت.

(57) S. FREUD: **Essais de psychanalyse,** op. cit., p. 166.

(58) م. ن.، ص 167.

(59) نقصد بهذا المصطلح القيم التي تتناقلها العقلية، والتي تختصر بـ: السلطة، القدرة... الخ.

(60) م. ن.، ص 167.

(61) A. GESELL et Frances L. ILG: **Le Jeune enfant dans la civilisation moderne,** op. cit., p. 32.

جديد، أبداً لا يتعيّن على المولود الأول الشعور في نفسه بأي انزعاج ناجم عن الولادة الجديدة؛ إلا أن العلاقة المُقامة سابقاً بين الأم وبينه تغدو مهدّدة بولادة الابن الثاني الذي يغدو العنصر المزعزع، المولّد لقلق البكر وتخوّفه؛ فيما العلاقة المقامة بين كل صغير والأم تكون لاحقة للعلاقة القائمة بين هذه الأخيرة والبكر. والحال، هذا الأمر ألا يجعلنا نفكّر بأهمية الخصومة الخاصة لدى البكر، بوصفها مصدر قلق وتهديدات كامنة؟

إنّ اهتمام الأم وعنايتها بالمولود الجديد، وما يثيره من اهتمام داخل الأسرة، هي كلّها مناسبات للبكر لكي يشعر بالتخلي والهجر والنكوص في سلوكه: التراجع إلى العمر الطفلي والتشبّه بالمولود الجديد. هذا «النكوص يشكّل آلية دفاعية... إذ يُزاح الولد إلى فترة لم يكن فيها نزاع ولا خصومة أخوية»[62]. روى لنا كثير من الأمهات محاولات البِكر إلغاء المولود الجديد أو تكسير الأغراض التي تشكّل، في نظره، صورة الطفل الغيور. وعليه، ستُفهم عقدة «قايين» بوصفها ترجمة لمنافسه أو «خصومة». فسوف تظهر عدة عوامل في حياة البكر؛ وسوف تتعرّض لانقلاب صورة الأم الخارجية أو صورتها المستبطَنة، نظراً لأنها ستنتمي إلى المولود الجديد، إلى الأخوة؛ إلا أنّ الصورة «الطيّبة» الن يعاود الابن البكر استنهاضها نظراً لأنه يبقى «المميّز»، المدلّل لدى أمه وأفراد الأسرة الآخرين؟ هذا السؤال يدعونا إلى درس موقف الابن البكر ومكنونات العلاقة الأخوية.

أ) موقف الابن البكر من الأم بعد ولادة ابن ثانٍ

منذ أن يأتي ابن ثانٍ، يتبدّل كل شيء في نظر البكر، بدءاً من سلوك الأم. فهو يحسّ أنه متروك لنفسه نسبياً، ويشعر بالحرمان أو الإحباط؛ ذاك أن وجود ثالث يجعله يشعر بقلق من تبدّل العلاقة الأمومية: إذ كان يعيش في جو حيوي، كل شيء، فيه مباح له. وإن ولادة ابن ثانٍ تهزّه، وتحرمه حتى من ملامسة الدخيل؛ فثدي الأم[63] الذي كان يحمل كل دلالات الإشباع واللذّة، يعود من الآن فصاعداً إلى الآخر. إنه مصاب بكثير من الحرمانات والمحرمات، وإن «وهم قدرته النرجسية اللامتناهية، يجد ما يؤكده في ظروف الحياة»[64]، مثل قدوم ابن ثانٍ يأخذ منه ثدي الأم. هذا الثدي الذي يعود إلى البكر، يشكّل موضوع لذة ولو وهميّة: «كل ما كان... مرغوباً فيه، يمكنه أن يغدو مخيّلاً»[65]، كما يشير فرويد إلى ذلك بأنه «محاولة من الطفل لإشباع نفسه بالوهم»[66]؛ الأمر الذي يثير لدى البكر، وبدافع من الآلية الدفاعية، شعوراً بالعداوة تجاه «المنافس». فيجد البكر نفسه أمام وضعين: لا يستطيع الانتقام من الدخيل ولا يتمكن من تحمّل الحرمان، فيتراجع إلى طور أدنى»[67]. فيما الوضع الثاني يقدم لنا البكر متخطّياً هذه المشكلة بفضل اقتناع الأهل بما يعزون إليه من قيم؛ الأمر الذي يحمل هذا الطفل إلى استرداد «كامل قوته». عليه، سندرس موقف البكر وإدراكه داخل الأسرة، في مواجهة الأخوة.

---

(62) L. CORMAN: **Psychopathologie de la relation fraternelle**, Dessart, 1970, p. 79.

(63) في المعنى الفرويدي، الثدي بوصفه موضوعاً نرجسياً.

(64) S. FREUD: **Psychanalyse**, op. cit., p. 122.

(65) S. FREUD: Cité par M. KLEIN, **Développement de la psychanalyse**, op. cit., p. 82.

(66) م. ن.، ص 82.

(67) نذكر هنا حالات الاستشارة بسبب مصاعب نفسية، أوردها لويس كورمان في كتابه: L. CORMAN, **«Psychopathologie de la rivalité fraternelle»**، ومعظمها مصاعب أبكار الأسر.

ب) موقف البكر وإدراكه في مواجهة الأخوة

لئن سلمنا بأن الأنا، في صميم الشخصية «يتراءى كعامل ارتباط بين السيرورات النفسية»[68] من الزاوية الاقتصادية، وأنه «يمثّل... القطب الدفاعي للشخصية»[69] من الوجهة الدينامية، فإنه المسؤول عن تدبير السلوك، في النظام النفسي؛ فهو يقوم بالتخيّر بين الخيارات الممكنة، وبالتقرير في الوضع الذي يتبدّى في سلوك. مما ينطوي على أن الحياة العلائقية للطفل تُبقي على هيمنة أحد الضغوط التي تتجابه ما بين استعدادات الفرد التكوينية الفطرية، وتُدخل العالم في شخصية هذا الطفل؛ وتبيّن لنا أسئلته، أوامره، وحتى صمته، مدى قلقه، وتكشف لنا وعيه لذاته كشخص متميّز من الآخرين، كما تكشف لنا غيرته من الصغير.

حين يكون البِكْر[70] في الطور الذي يبدأ فيه بإقامة علاقاته، علاقات العلة بالمعلول، بين سلوكه وسلوك الأم والمولود الجديد، سيجد نفسه في وضع صعب بنحو خاص.

ج) مولد الخصومة الأخوية لدى البكر

لدى ولادة أخ صغير، يعاني الطفل من محنة كبيرة؛ إذ إن أناه لا يتوصل دوماً إلى إيجاد حل مناسب للنزوات والمآزم التي يصادفها؛ والحال، يمكنه استعمال آلية «نكوصية» ترجعه إلى طور سابق على حساب النضج العاطفي. وفي الأغلب، كما يشدّد على ذلك د. ت. ماكلاي، «يرتدّ الأطفال القلقون جداً على انفسهم بطريقة عنفية وحتى قاتلة أحياناً...، لأنهم عاجزون عن تخطّي انفعالاتهم»[71]. وكم يبقى المُعاش من سنوات القلق تلك داخلياً، وتالياً لاواعياً، دون توصيله للآخرين بالكلام؛ وتشير بوليت كاهن إلى أن «خصومة حادّة تصل إلى حد تمنّي الموت للأخوة»[72]. فهل الحال كذلك بالنسبة إلى الابن البكر؟

حسب مبدأ اللذة، يمكن للإجبال والاجتياف الرغائبي أن يتحقّقا وأن يشكّلا بقايا الأنا البدائي للطفل. فالجو العاطفي الناشىء بين الأهل والمولود الأول لن يتكرّر مع الابن الثاني، ومن ثم تغدو هذه العلاقة العاطفية، المشحونة بالدلالات والتي يحسّها الطفل، هي النبّاض الأساسي لاندماجه الاجتماعي. وتشكّل المحظورات والمواقف الوالدية نوعاً من سلطة تراقب أنا الطفل بالمعنى الحقيقي، وتندمج في شخصيته. قد يكون ذلك نوعاً من «الدفاع الذي يحمي من العلاقة السلطويّة... بوصفها دفاعاً مضاداً للعلاقة الصحيحة بالآخر»[73]. طيلة هذا التطوّر، يتحرّر من حياته الخاصة والأنوية، لكي يتموضع في عالم الآخرين. أما الافعال، كما سنرى ذلك في مقاصد الأسرة المطبّقة على الأبكار، المتحفّزين نسبياً، فسوف يعدّلها سلوك الأشخاص الآخرين؛ وكما تقول پ. كاهن «الابن الثاني يثير لدى البكر اضطرابات عاطفية وسلوكية»[74]؛ غير أن المهم أولاً في نظر البكر هو الصورة التي يكوّنها، حسب حكم الغير، عن شخصه

---

(68) J. LAPLANCHE et J.-B. PONTALIS: **Vocabulaire de la psychanalyse,** op. cit., p. 241.

(69) م. ن.، ص 241.

(70) الإنحراف العمري بين البكر والابن الثاني في عينتنا، يتراوح بين 11 و27 شهراً. يتطابق عمر البكر مع الطور الثاني من التطور الشبقي، الواقع حسب فرويد بين 2 ـ 4 سنوات، حيث تكون العلاقة بالموضوع منطبعة بدلالات عاطفية.

(71) DAVID T. MACLAN: **Thérapeutique active en Psychiatrie infantile,** Masson, 1971, p. 32.

(72) Paulette CAHN, **La relation fraternelle,** P.U.F., 1962, p. 129.

(73) Max PAGES: **La vie affective des groupes,** op. cit., p. 306.

(74) P. CAHN: **La relation fraternelle,** op. cit., p. 130.

وسلوكه لكي يحافظ على الحب الأهلي، فينزع البكر إلى التماهي بالصورة التي يصوّرها الآخرون ويتبنّاها هذا الابن. هذه الصورة، ألن تكون بالنسبة إلى الطفل الأنا المثالي، الممثل، الذي يتقارن به؟ وهذا النموذج الذي يستبطن في صورة مثالٍ مقوّم، ألا يمكنه الحلول محل صورة الأب أو كل صورة أخرى تقدّمها الأسرة على أنها «المثال المنشود»؟ ولا سيما أن هذا الأنا ـ المثال يقدّم منذ الولادة ويستند الأهل إليه باستمرار، فيما «لا تقوم كيفية العلاقة المولّدة للأنا الذي يعي ذاته ولعالم يتموضع، إلا ببطءٍ... بين 6 و12 سنة»[75]. قبل السادسة، ألا يتماهى الطفل مع هذا الأنا ـ المثال حتى يفرح الأهل! نظراً لأن هذه المرحلة تسير فيها التنشئة الاجتماعية جنباً إلى جنب بناء العالم الموضوعي»[76].

إن الأجوبة عن الاستمارات المستعملة لهذه الغاية، والتي سنعرضها في الباب الثاني من هذا الكتاب، أظهرت لنا في الأغلب أن الحرمان نوعي لدى الابن البكر، وأن سلوكه ينساق في نظام معاوضة يفترض أن تكون له تأثيراته في مجرى تطور شخصيّته، طبقاً لتجاربه السابقة، ولدرجة نضجه ولقوة أناه. فهذا الأخير مشغول دوماً بالخوف من فقدان الحب الوالدي، وعليه، يجد نفسه مضطراً، من جهة، للتوجه بسلوكه نحو الهدف الحفاظ على هذا الحب بأي ثمن؛ ومن جهة ثانية، يتمنّى السير في اتجاه استعداداته، وإيجاد إشباعاته الذاتية، وتالياً، تحقيق توازنه.

ولكن ليس ثابتاً أن الإسقاطات هي موضوع استيعاب الفرد دوماً. فهو لم يعد قادراً على استرجاع توازن مناسب، ويرفض كل إذعان، أو يرد دوماً بمقتضى حنينه إلى الإمرة، إلى أن يكون القائد، الأول، وأن تكون له سلطة مفرطة في محيطه.

بين 6 و12 سنة، تقع المرحلة التي ستحدث فيها «القَبْليّات» الاجتماعية، والقرابيّة بالدرجة الأولى، والاندراج الاجتماعي؛ فهذه «المرحلة الأساسية»[77]، كما يصفها موكشييلي، إذا «فاتت، سيعاني منها الفرد طويلاً، وربما دوماً؛ وعندما يبلغ سن الرشد، لن يكون إندراجه في المجتمع سوياً»[78]. في هذه الحال، ماذا يمكن أن يكون حال الابن البكر مع كل ارتقابات أهله وتوقعاتهم المعلقة عليه؟ وفوق ذلك، في ازدهار أناه وتوكيد ذاته، ماذا تغدو كيفيّات حياته العلائقية في هذه المرحلة ما بين 13 و18سنة، حيث «ينزع تطور الشخصية (...) نزوعاً فطرياً إلى إقامة علاقة جديدة، نمط حياة جديد، رؤية جديدة للعالم»[79]؟ مع العلم بأن «الفردية تكون دوماً بالقوّة على الرغم من عدم انقطاعها عن التكوّن»[80]، فإن هذه الصورة المثالية هل يمكنها أن تكون قوة معاندة أو مؤاتية بالنسبة لهذا الطفل؟

ليست الصورة المثالية النتاج الوحيد للأهل، لكن أيضاً نتاج الأخوة، لأنهم يرون في البكر «الأخ الأكبر، ثاني الأب، الخ.»، دون أن تُنسى مع ذلك الخصومة والغيرة الأخوية التي تُضاف إلى المنافس، الذي يظل هو الأرهب، وهو في نظرنا، الصورة المثالية التي يسقطها الأهل؛

(75) R. MUCCHIELLI: **La personnalité de l'enfant**, éd. E.S.F., 1976, p. 90.

(76) م. ن.، ص 90.

(77) R. MUCCHIELLI: **La personnalité de l'enfant**, op. cit., p. 90.

(78) م. ن.، ص 90.

(79) م. ن.، ص 138 ـ 139.

(80) Arnold GESEL, Frances ILG, Louise BATES-AMES: **L'Adolescent de 10 à 16 an**, P.U.F., 1978, pp. 37.

فالغيرة والمنافسة أو أية عقدة أخرى تصدر عن الأخوة، تكون مهمة بقدر ما تتعلق بهذا أو ذاك من مكوّنات هذا الأنا المثالي.

ختام

يمكن القول إن وضع الابن البكر محوريٌّ في صميم العائلة.

فعليه، لكي يفرح ذويه، أن يحقّق رغباتهم، طالما أنه ليس سوى إسقاطها. لكنه ألا يملك نكهته أو ذوقه الخاص به، تطلعاته الذاتية، وقدراته الخاصة؟ في الغالب، ينجم وضع تنازعي عن هذه الحالة، قالباً هكذا حياة الابن البكر العاطفية، الذي يكون موزّعاً بين مشاعره المتناقضة. ناهيك بأن هذا الابن المتميّز يصطدم بمشكلاتٍ أخرى لا تقل حساسية، يثيرها الأخوة الذين جاءوا لتجريده من بعض امتيازاته.

صفوة القول إن الابن البكر يحاول استصناع الأنا الذي يمكنه أن يكون مركباً من كل ما يحب ويكره وما يعذبه، وثمرة لكل الموانع والحرمانات والخصومات والمحابطات من جهة، وللامتيازات الممنوحة له من جهة ثانية. والحال، قد يكون تطور حياته العاطفية ـ المعرفية على علاقة مباشرة بمحيطه، وربما تنطبع بطبيعة الروابط المقامة مع أهله من وجه، ومع أخوته من وجه آخر.